فصل في الشيخ عادي

للشيخ عادي مقام غير منكور عند اليزيدية، وقبره اليوم كعبتهم التي يحجون إليها، وشيخهم الأعظم سادن مقامه، ولهم فيه مزاعم في مصحف رش؛ منها أن الله تعالى أرسله إلى أرض الشام إلى لالش، ومفهوم العبارة أن ذلك كان قبل خلق آدم عليه السلام، وهو من الخلط الذي لا تخلو منه عباراتهم.

وفيه أنهم عند إرسال السناجق (الأعلام) إلى القرى لجمع الصدقات يخرجونها من عند قبره باحتفال عظيم ورقص وغناء وزمر ونقر على الدفوف والطبول، ويعجنون من ترابه بنادق (كرات صغيرة) تحمل مع السناجق فتُفرَّق في القرى للتبرك بها، وعند عقد الزواج يأتون برغيف من دار شيخهم يتقاسمه العروسان، فإن لم يوجد اكتفيا بسفٍّ شيء من تراب الشيخ عادي، وفي الزوائد الملحقة بالنسخة الأمريكية أنَّ مَن يموت منهم يجب أن يحضره شيخ من شيوخهم الذين في طبقة «الكوْجَك» ليضع في فيه شيئًا من هذا التراب قبل دفنه، وفيها أيضًا تفضيل مناسكهم عند زيارته، وأنَّها مفضَّلة عندهم على حجِّ البيت الحرام، مع التصريح بأنه مبتدع ملَّتهم ومرشدهم الأوَّل إلى طريقها.

وفي النسخة الأمريكية أيضًا نبذة عن الشيخ عادي، وردت قبل كتاب الجلوة كمقدِّمة له، نثبتها هنا دليلًا على مبلغ جهلهم بالتاريخ وخلطهم بين الأزمان المتفاوتة، ونموذجًا لما في كتابيهم من الركاكة وسوء التعبير، وهذا نصها: «زمان المقتدر بالله سنة مائتين وتسعين هجرية، كان منصور الحلَّاج وشيخ عبد القادر الكيلاني في ذلك الوقت ظهر إنسان اسمه الشيخ عادي من جبال الحكاريَّة،[1] أصله من أطراف حلب أو من بعلبك، جاء

[1] أي: الهكارية.

وسكن جبل لالش، قريب مدينة الموصل نحو تسع ساعات، والبعض قالوا: إنه من أهل حرَّان، ونسبته إلى مروان بن الحكم، فإنَّه شرف الدين أبو الفضائل عادي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان، وكان وفاته سنة خمسمائة وثمانٍ وخمسين هجرية، وقبره يزار الآن قرب قرية باعدرى[٢] من قرى الموصل، تبعد عنها إحدى عشرة ساعة، واليزيديَّة هم نسل الذين كانوا مريدين عند الشيخ عادي المذكور، والبعض منهم ينسبون إلى يزيد، ومنهم إلى الحسن البصري.» انتهى.

ولا بدَّ لنا قبل التعريف بهذا الشيخ من تصحيح اسمه، فإنه ورد في كتابيهم مرسومًا بزيادة ألف بعد العين، كما رسمناه متابعة لهم، وبه ورد أيضًا في مجلَّات الجنان والمقتطف والمشرق، وورد في مقالة مجلة الضياء بلفظ الشيخ الهادي، وجاء بها عنه ما نصه: «الذي في الأصل السرياني الشيخ أدي، وكذلك هو في النقل الفرنسوي، ولعل لفظه الصحيح عدي، إلا أننا رأينا بولياي رواه بزيادة هاء في أوَّله كما أثبتناه فيما نقلناه عنه قريبًا، وهو الذي اعتمدناه في سائر المقالة توحيدًا للتسمية.» انتهى.

قلنا: والصواب أنه «عدي»، كما ظنَّه في تصحيح لفظه.

وفي مقالة مجلة المشرق ذِكْر لأسطورة رواها رجلان من اليزيدية مصرَّح في آخرها بأن لفظ عادي محوَّل عن آدي، وخلاصتها أن مزار الشيخ كان في الأصل ديرًا للنساطرة، بني على اسم القديس أدَّى أو آدي، ثم تفرق رهبانه بإغواء طاووس ملك لهم، ودانوا باليزيدية، وظهر في إبَّان ذلك الشيخ عادي بدعوته، وأنبأ تلاميذه بأمر الرهبان قبل وقوعه، وأوصاهم بدفنه في مكان المذبح الأعظم بالبيعة بعد هدمه، فعملوا بوصيته وصاروا يحجُّون إلى قبره كل سنة، وحوَّلوا اسم آدي إلى عادي. انتهى.

قلنا: والقول بهذا التحويل ظاهر البطلان لما سيأتي، ولعل كاتب المقالة الفاضل كان متوقفًا فيه أو فيما ورد عن أصل الزار أيضًا، فإنه ختم عبارته بقوله: «فتأمل»

والصواب أنه الشيخ عدي بن مسافر أحد صوفية زمنه ومعتقديهم، ترجمه ابن خَلِّكان في وَفيات الأعيان، فقال عنه: «الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان، كذا أملى نسبه بعض ذوي قرابته الهكاريُّ مسكنًا، العبد الصالح المشهور الذي تنسب إليه الطائفة العدوية.» انتهى. وذكر ابن الورديِّ نسبته في تاريخه كما ذكرها ابن خلكان، وزاد فيها بعد مروان الأخير: «ابن الحكم بن مروان

[٢] أوردها ياقوت في معجم البلدان بلفظ باعذرا بالذال المعجمة، وقال عنها: مِن قرى الموصل.

الأمويُّ.» وفي هذه الزيادة نظر، وكذلك فعل السخاويُّ في تحفة الأحباب[٣] في سياقه لنسب قريبه زين الدين يوسف المدفون بمصر بالقرافة الصغرى، غير أنه ذكر بعد مروان الأخير: «ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.» ثم ساق نسبه إلى عدنان، وهذا هو المعروف في نسب مروان بن الحكم؛ فإن جدَّه أبو العاص لا مروان، وفي مسالك الأبصار لابن فضل الله العمريِّ ترجمة للشيخ عدي جاء فيها أنه «من ولد معاوية بن أبي سفيان.» وهو قول لم نره لغيره، والظاهر أنه أراد من ولد مروان بن الحكم فسبق قلمه إلى معاوية، والله أعلم.

ثم قال ابن خلكان عن الشيخ عدي: «سار ذكره في الآفاق وتبعه خلق كثير، وجاوز حسنُ اعتقادهم فيه الحدَّ، حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون إليها وذخيرتهم في الآخرة التي يعوِّلون عليها. وكان قد صحب جماعة كثيرة من أعيان المشايخ والصلحاء والمشاهير؛ مثل: عقيل المنبجي وحمَّاد الدَّبَّاس وأبي النجيب عبد القاهر السُّهروردي[٤] وعبد القادر الجيلي وأبي الوفاء الحلواني، ثم انقطع إلى جبل الهكَّارية من أعمال الموصل، وبنى له هناك زاوية، ومال إليه أهل تلك النواحي كلها ميلًا لم يسمع لأرباب الزوايا مثله، وكان مولده في قرية يقال لها: بيت فار[٥] من أعمال بعلبك، والبيت الذي ولد فيه يزار إلى الآن، وتوفي سنة سبع — وقيل خمس — وخمسين وخمسمائة في بلده بالهكَّارية، ودفن بزاويته رحمه الله تعالى، وقبره عندهم من المزارات المعدودة والمشاهد المقصودة، وحفدته إلى الآن بموضعه يقيمون شعاره ويقتفون آثاره، والناس معهم على ما كانوا عليه زمن الشيخ من جميل الاعتقاد وتعظيم الحرمة، وذكره أبو البركات ابن المستوفي في تاريخ إربل، وعدَّه من جملة الواردين على إربل، وكان مظفَّر الدين صاحب إربل رحمه الله تعالى يقول: رأيت الشيخ عدي بن مسافر وأنا صغير بالموصل وهو شيخ ربعة أسمر اللون، وكان يحكى

---

[٣] تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، للعلامة محمد بن عبد الرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢، طبع على حاشية الجزء الرابع من نفح الطيب بالمطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٠٢.

[٤] في نسخة وفيات الأعيان المطبوعة ببولاق المنحي وعبد القادر الشهرزوري وكلاهما تحريف.

[٥] في نسخة وفيات الأعيان البولاقية بيت قار بالقاف، وهو تحريف صوابه بالفاء، وقد نص البقاعي على ذلك في عنوان العنوان في ترجمة الخطيب العدوي أحمد بن محمود بن عبد السلام من ذرية أبي البركات ابن أخي الشيخ عدي بن مسافر، فقال عنه: «البقاعي البيتفاري، بفتح الموحدة ثم تحتانية ثم فوقانية وفاء وقبل ياء النسبة راء، نسبة إلى بيت فار من البقاع.»

عنه صلاحًا كثيرًا، وعاش الشيخ عدي تسعين سنة رحمه الله تعالى.» انتهى ما ذكره ابن خلكان بنصه.

وترجمه ابن الفرات في تاريخه والمقريزي في خططه في كلامه على الزاوية العدويَّة، بما لا يخرج عما ذكره ابن خلكان، وترجمه الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته الكبرى المسماة بلواقح الأنوار، وفي طبقاته الوسطى، فأثنى عليه في كلتيهما ثناءً كثيرًا، وذكر أنه أقام في أوَّل أمره زمانًا في المغارات والجبال والصحاري مجرَّدًا سائحًا، يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات، قال وهو أول من قُصد بالزيارات وتربية المريدين الصادقين ببلاد الشرق، وقصده الناس من سائر الأقطار، ثم نقل جُملًا من مأثور أقواله في التصوُّف، وذكر له كرامات وخوارق إلى أن قال: سكن رضي الله تعالى عنه جبل الهكَّار، واستوطن بالس إلى أن مات بها سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ودفن بزاويته المنسوبة إليه، وقبره بها ظاهر يزار.

وذكر ابن الأثير وأبو الفداء واليافعيُّ أن وفاته كانت سنة سبع وخمسين وخمسمائة، ومثله في تاريخ ابن الورديِّ، إلا أنه نقل أيضًا عن كتاب بهجة الأسرار لنور الدين اللخميِّ، أنها كانت سنة ثمان وخمسين، وأن أصله من حوران، وأطنب ابن الورديِّ فيه وفي وصف زهده وتقشُّفه وكراماته في كلام نَقَل أغلبه الشعراني في طبقاته، وفي مختصر تاريخ الإسلام للذهبيِّ في حوادث سنة ٥٥٧ ما نصه: «وفيها مات شيخ العارفين عدي بن مسافر الهكَّاريُّ الزاهد وقد قارب التسعين.» وترجمه ابن الفرات في وفيات سنة ٥٥٧، إلا أنه قال أيضًا عن وفاته: «وقيل كانت وفاته في سنة خمس وخمسين.» ومثله في مسالك الأبصار لابن فضل الله، ونصُّ عبارته: «وتوفي سنة سبع — وقيل سنة خمس — وخمسين وخمسمائة.»

وقول الشيخ الشعراني: «واستوطن بالس إلى أن مات بها»، تحريف في نسخة الطبقات الكبرى؛ لأن بالس بلدة بالشام بين حلب والرقة على ما في معجم ياقوت، فأين هي من بلدة الشيخ عدي التي سكنها بالهكَّارية؟ والذي في طبقاته الوسطى «لاكش» بلام فألف وكاف، وكلاهما فيما ظهر لنا تحريف عن لالش، وهي الواردة في النصين العربي والكردي من «مصحف رش»، إلا أنها وردت في بعض المواضع من النصِّ الكرديِّ بلفظ لايش بالمثناة التحتية بدل اللام، وبه وردت أيضًا في مقالة مجلة المقتطف عن اليزيدية، والصواب أنها بلامين، وبهما وردت في نسخة تحفة الأحباب للسخاوي. وقد ذكرها ياقوت في معجمه بلفظ «ليلش» وقال عنها: قرية في اللِّحْف من أعمال شرقي الموصل، منها الشيخ عدي بن مسافر الشافعي شيخ الأكراد وإمامهم وولده.

وفي شذرات الذهب لابن العماد ترجمة «للشيخ عدي»، أثنى عليه فيها ثناءَ مَن ترجمه قبله، وذكر تجاوز أصحابه الحدَّ في اعتقادهم به حتى زعموا أنه إذا ذُكر على الأسد وقف أو على البحر سكن، وإلى ذلك أشار الشيخ الصديق بن محمد المقري المعروف والده بالمدوخ في وسيلته الجامعة بقوله:

بجاه عدي ذلك ابن مسافر به تسكن الأمواج في لجج البحر
وإن قلته لليث لم يخطُ خطوة ولا الشبر من قاع ولا القاع من شبر

ووقفنا في جزء قديم من تاريخ عندنا لم نعلم اسمه ولا اسم مؤلفه على حادثة وقعت سنة ٦٥٢ لأصحاب الشيخ عدي، نبش فيها قبره وأحرقت عظامه، وهذا نصُّ العبارة: «في هذه السنة جرت بين أصحاب الشيخ عدي بن مسافر وأصحاب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل محاربة، كان سببها أن بدر الدين كان كثير التثقيل على أولاد الشيخ عدي، ويكلفهم مالًا على وجه المساعدة، فأطلقوا ألسنتهم فيه، فأرسل طائفة من عسكره إليهم فقاتلوهم قتالًا شديدًا، فانهزمت الأكراد العدوية وقُتل منهم جماعة كثيرة، وأسروا منهم جماعة، فصلب بدر الدين منهم مائة وذبح مائة وأمر بتقطيع أعضاء أميرهم وتعليقها على أبواب الموصل، وأرسل من نبش الشيخ عديًّا من ضريحه وأحرق عظامه.»

هذا ما ظفرنا به من ترجمته، وهو عندنا أصل الطريقة اليزيدية، ومكوِّن هذه الطائفة، على ما أدَّانا إليه البحث كما سيأتي تفصيله.